محمد صالح الجابري

المضمون السياسي في الرواية التونسية

يرتبط مضمون الرواية العربية المعاصرة الى حد كبير بوقائع الاحداث وتلابسات الاجتماعية والسياسية ، والاقتصادية التي مرت بها الاقطار العربية ، منذ مطلع القرن وحتى الآن .

فاذا كان الشعر العربي قد ساهم في الهاب المشاعر ،والدعوة الى النفير ، ونزع الى التحريض والايقاظ وجلجل في الساحات ،واذا كانت القصة العربية قد رصدت حركة التطور الانساني في هذه الرقعة الجغرافية على سعتها ، وسجلت الخطوات البارزة التي قطعها المجتمع العربي في رحلتي العذاب والرخاء ـ فان الرواية التي تعد احدث انماط الكتابة العربية لم تتوقف عند حد التحريض ، ورصد التحولات فحسب ، وانما نجدها تؤرخ لنضال الجماهير في هذه الاقطار ، وتفتح صفحاتها لتكتب التاريخ الذي لم يتجرأ المؤرخون على كتابته حذر التعرض لسخط السلطات ، ولتدون في سعة وتمثل التجربة الابداعية السخية للطبقات الكادحة في نسق يغالب تواتر الاحداث وتعاقبها .

ان الروائي العربي لعب لحد الآن دورا مزدوجا ،دور المؤرخ الذي يكرس معظم ابداعه لاظهار مواهب الفئات الواسعة ، ودور الفنان الذي يقصد بسعيه تأكيد الوقوف الى جانب الجماعات المكافحة الفاضبة، والمقضوب عليها .

ومن هذه الزاوية فان الرواية العربية ، ربما اصبحت في المدى القريب والبعيد مصدرا هاما من مصادر التاريخ الاجتماعي لا غنى عنه لمعظم الباحثين في مختلف تفرعات الفكر ، بما في ذلك المؤرخون المتخصصون فيدراسة التاريخ ذاته . ولربما كانت الرواية ايضا المصدر الوحيد الذي يصح الاعتداد به مستقبلا في مثل هذه الدراسات لانصراف الرواية في معظم احوالها الى ابراز الواقع المعدوم ، المتجاهل للفئات الهامشية التي ترتبط بالاحداث اليومية ولا تتصدر نشرات الاخبار في مطلع كل ساعة زمنية ،ولا يعبأ بها المؤرخون للاحداث .

وانه لمن الصدف الرائعة ان تلج الرواية العربية تاريخها من خلال المراحل العصيبة التي عاشتها الامة العربية فيما مضى من ثلثي هذا القرن . فعاصرت غمرات النضال ، وراكبت الانتقالات العديدة التي خرجت بهذه الرقعة العربية ذات الامتداد الباهر من طور الاستعمار الى طور الحرية .. ومن طور حكم السلالات المستبدة الى طور الطبقة الفاعلة ، اليقظة المؤثرة في توجيه الاحداث ومن طور الطبقية والامية الى وضع الشعور بالذات والكرامة ، والقدرة على التمرد والعصيان والثورة .

وقد استمر تطور الرواية وارتباطها بالاحداث السياسية يتنامى بتنامي الصدمات الاجتماعية والسياسية ، وتراكم الازمات التي مر بها العالم العربي اثناء مواجهته الثارية العنيفة مع الاستعمار الانكليزي والفرنسي والايطالي والصهيوني . وكذلك اثناء طرح مشاكل التفاوت الطبقي ، والصراع الاجتماعي ، والانحراف السياسي .

كان الروائيون العرب على اختلاف نزعاتهم واساليبهم ، وعبر السنوات المختلفة دعاة تطلع وطموح ، عبّروا بأكثر ما يمكن من الصدق والواقعية عن ايجابيتهم من الاحداث . وحافظوا على مواقفهم في اتجاه التقدم بما في ذلك الروائيون الذين شغفوا بتناول قضايا ومشاكل الطبقة البورجوازية اذ كانوا في اكثر الاحوال قد عملوا على فضح تناقضاتها ، وتفسخها . وعدا نفر قليل من كتاب الرواية الذين اتخذوا من الكتابة حرفة الهاء لتسلية المراهقين والمراهقات ، وابتزاز مشاعرهم ، وحبك المغامرات والعواطف الكاذبة ، فان بقية الروائيين العرب نجدهم يطرحون اعمق المشكلات الثورية والانسانية ، ولا يقلون في ذلك مستوى فنيا او فكريا ـ رغم حداثة التجربة ـ عن بعض روائيي الطليعة في العالم الثالث .

ومن المؤمل ان تبلغ الرواية العربية منزلة لائقة بشرط ان يثابر كتابها على الاستمرار في الخلق والابداع ، وان يخرجوا بهذه المحاولات من اطار تسجيل الاحداث الماضية والوقائع التاريخية الى اطار معايشة القضايا المتجددة بين اللحظة والاخرى .

ورغم ان عددا من نقاد الرواية لا يوافقون على استحالة الروائي الى صحفي ، او مراسل حربي او كاتب مذكرات يومية الا انهم يأبون عليه ان يدع الاحداث تمر تحت ذقنه ليعيد تركيبها بعد انتفاء فاعليتها واستحالتها الى ركام من الذكريات .

ان المضمون السياسي للرواية العربية يرتبط لحد الآن بتاريخ الاحداث البعيدة التي تعاقبت على الاقطار العربية ، ودور الروائي العربي في ذلك لم يتعد في الغالب اعادة تركيب هذه الاحداث من خلال التصورات والتخيل . وهناك محاولات محدودة اهتمت بتقصي الحافز واستلهامه ، ولكن كاتبيها لم يتمكنوا من تجريد انفسهم منها، مما جعل هذه الرواية تبدو أقرب الى التعبير عن الواقع الذاتي للكاتب ، منها الى التعبير عن الواقع السياسي والاجتماعي لمرحلة من المراحل .

هذا اذا لم يعمد المؤلف الى الارتداد بمضمون روايته الى الماضي، قصد طمس معالم الحاضر بسبب التهيب والخوف من التبعات والاشكالات السياسية .

وفي هذا المنحي تتشابه معظم الاعمال الروائية التي صدرت في المغرب او المشرق على السواء ، ذلك التشابه الذي يدل بوضوح على طبيعة المشاكل التي تعاني منها هذه الاقطار ، وتماثل الاحداث فيها ، ونوعية الانظمة السياسية في جميعها . كما يدل هذا التشابه على وحدة التجربة الابداعية بين هذه الاقطار التي لها خصائص متقاربة ، وان تفردت كل منها بما يميزها من سمات قطرية محلية تمليها الاوضاع الجغرافية والبشرية والاقتصادية، وكذلك الظروف السياسية الوطنية .

يطرح المضمون السياسي للرواية العربية قضيتين جوهريتين : قضية الكيان والهوية في مرحلة الصدام مع الاستعمار ، وقضية الصراع الطبقي في مرحلة البناء الوطني والقومي .

وحول هاتين القضيتين تحوم معظم القضايا الطفيلية الاخرى التي تتشعب عنهما .

وعند البحث في القضية الاولى ، نصادف في جل ما صدر من روايات على امتداد الحروب التي خاضتها الامة العربية آثارا لهذه الحروب وصورا من المقاومة الشعبية ضد الانكليز في روايات نجيب محفوظ من مصر ، وغائب طعمة فرمان من العراق ، وضد الفرنسيين والايطاليين والصهاينة في كتابات محمد ديب وكاتب ياسين ووطار من الجزائر وحنا مينا من سوريا وعبدالكريم غلاب من المغرب وغسان كنفاني من فلسطين ومحمد المختار بن جنات من تونس وغيرهم .

اما قضية الصراع الطبقي ، والمناداة بالعدالة الاجتماعية والثورة ضد البورجوازية المحلية التي ورثت الامتيازات التي كانت للاستعمار تحت دعاوي مختلفة فانها تكاد تحتل الجزء الاوفى من اهتمامات الرواية العربية ، بالرغم من ان معظمها لا يصدر عن نظرة ايدلوجية لقضية الصراع الطبقي بقدر ما يعبر عن المساندة ،والتعاطف مع كفاح الاغلبية الاجتماعية . والرواية التونسية على حداثة تجربتها نجدها منذ البداية ترتبط بالاحداث السياسية فتتجند لمقاومة المستعمر او بالاحرى لابراز الكفاح الجماعي الذي خاضه التونسيون ضد الفرنسيين في الخمسينات ، وتتوافر على تسجيل هذا الكفاح، وعلى الاشادة بالبطولات الظافرة التي بذلها المقاومون في المدن والجبال، من اجل الدفاع عن الكيان الوطني وتاكيد الهوية القومية لهذا الشعب وهو ما تبرزه روايات « ومن الضحايا » ، « حليمة » و « التوت المر » للعروسي المطوي و « الدقلة في عراجينها » للبشير خريف ، و« ارجوان » و (نوافذ الزمن) للمختار بن جنات و« بودودة مات » لرشاد الحمزاوي و « يوم من ايام زمرا » لمحمد صالح الجابري ، و « عندما ينهال المطر » لعبدالرحمن عمار و « في بيت العنكبوت » لمحمد الهادي بن صالح . كما تبرز قصة الارض وكفاح الانسان العادل من اجل القوت وتكافؤ الفرصة في معظم الاعمال الروائية الاخرى كروايات (المنعرج) لمصطفى الفارسي (ونصيبي من الافق) لعبد القادر بن الشيخ و (سوق الكلاب) و (هذه الشجرة) لمحيي الدين بن خليفة و (البحر ينشر الواحه) لمحمد صالح الجابري ، و (عواصف الخريف) لعبدالرحمن عبيد .

ومن خلال هذه المحاولات الروائية يمكن التعرف على تاريخ الشعب التونسي ، ومدى ما قدم من تضحيات جسيمة في سبيل الكيان والهوية ، وفي سبيل الارض ، ودعم حق الاكثرية في العدالة.

واذا كان بعض النقاد يضع جانبا من الاحترازات تجاه ما يكتب عن الثورات الوطنية التي ما يزال قادتها على قيد الحياة، وربما كانوا في قمة السلطة احيانا فان هذه الاحترازات تبدو في الواقع ضربا من الاتهام المسبق لقدرة الروائي على تجاوز المبالغات الخاصة بالاشخاص ، والنظر اليهم في اطار الكفاح الجماعي .

على ان المقصود احيانا بهذه الاحترازات المطروحة هو حمل الكاتب على الخروج من دائرة الماضي ، والتغني بالثورة والامجاد والبطولات التي صنعها الشهداء والراحلون الى الكتابة عن الحاضر والواقع اليومي ، والانغماس في حماة الصراع الدائب المستجد ، ومواجهة الحياة بصرامة . وربما كان المقصود منها ايضا ذلك خط الرجعة لدى الكاتب العربي الذي يعشش في قلبه حنين ابدي للحلم ، واعتزاز مفرط بكل ما خلف وراءه من امس .

تعتبر رواية (ارجوان) لمحمد المختار بن جنات في مقدمة الاعمال الروائية التي ارخت لمرحلة المقاومة الشعبية ضد الفرنسيين ، وقد بذلك كاتبها جهدا خارقا من اجل ان تكون موسوعة روائية ستوعب عامين من النضال : هما عاما اندلاع الثورة الوطنية من سنة ١٩٥٢ الى سنة ١٩٤٥ اي بداية من الكفاح المسلح الى الاستقلال الداخلي الذي سبق الاستقلال التام في سنة ١٩٥٦ .

وتقع رواية (ارجوان) في سبعة اجزاء ، وفي نحو اكثر من الف صفحة مطبوعة وهي بذلك تتجاوز في حجمها كل ما صدر من روايات عربية لحد الآن بما في ذلك ثلاثية نجيب محفوظ . وقد ظهر من هذه الرواية ـ النهر ـ كما يقول الاجانب او هذه الموسوعية الروائية ـ ان صح التعبير ـ ثلاثة اجزاء فقط ، ثم عطل الناشر صدور بقية الاجزاء لخلاف شخصي بينه وبين الكاتب . ورغم اني تمكنت من قراءة مخطوطة هذه الرواية اكثر من مرة فان الموضوعية تلزمني بان لا اتجاوز معالجة مضمون الاجزاء الثلاثة المتوفرة لدى القراء وهي اجزاء تقدم في مجموعها صورة متكاملة لكل من يطلع عليها ، ولكنها لا تعطي سوى صور منقوصة لمن تسنى له ان يطلع على ما لم ينشر من هذه الرواية .

وقد عزز المختار بن جنات تجربته الروائية في الاتجاه الى الادب التسجيلي الوطني برواية ثانية صدرت سنة ١٩٧٤ بعنوان (نوافذ الزمن) لتروي قصة ما حدث في معركة بنزرت الشهيرة في صائفة ١٩٦٢ . ويبدو لمن اطلع على كلتي الروايتين ان المؤلف استطاع ان يقنعنا بتطور تجربته الروائية من خلال التوازن الفني الدقيق الذي اقام عليه معمار روايته (نوافذ الوجود) التي اعدها شخصيا رواية الروائيين التونسيين من الناحية الفنية على الاقل ومن المؤسف ان تلقى بعض المحاولات الروائية الفاشلة من الدعاية والرواج بسبب غياب النقد الواعي النزيه ما لم تلقه اعمال هذا الكاتب الذي وجد في نفسه الجرأة بان يكتب عن الاحياء ، ويبرز اسماءهم الصريحة ، ويعلن عن ادوارهم في الثورة التونسية . ومهما قيل في هذا اللون من الكتابة وما ينطوي عليه من الاحكام والاراء التي تهيب المؤرخون عن البت فيها فان المؤلف لم يكتب تاريخ الثورة التونسية ، ولكنه حاول ان يضع هذه الثورة في اطارها الاجتماعي ، ويبرز من خلالها ما قامت به مختلف الفئات الاجتماعية ، خصوصا وقد لعب دور البطولة فيها الابناء المغمورون من هذا الشعب دون ان يفرد في روايته اي زعيم او قائد بما يتمنى لنفسه من الهالة ، عدا ما كانت الاخبار العامة تفرض تداوله بين الناس في مختلف الاوساط عن هؤلاء القادة الذين سجنوا ،او هذا الحزب الذي يقوم بالتحريض على الثورة ، او تلك المنظمة النقابية التي شاركت بفعالية في دفع العمال وترشيدهم الى وعي منزلتهم من خلال شخصية (قدور القادري) مثلا ، وعلى خلاف هاتين الروايتين فان معظم ما كتب من الروايات الاخرى ، عن الثورة ومضمونها السياسي والاجتماعي ، كان يفتقر الى العمق احيانا ، والى الفن والابداع في اكثر الاحايين ، وهو في جملته مجرد استعراض للوضع البائس الذي كانت تعيشه تونس في العهد الاستعماري ، ومجرد تصوير لاحداث لها اساس في الواقع ، عرضت باسلوب تغلب عليه التقريرية ، وتجمع فيه الروح الوطنية العالية .

ان السمة البارزة للرواية النضالية في تونس ، هي ان القارئ يستطيع ان يطالع من خلالها تاريخ الثورة التونسية الذي لم يكتب بعد . وعلى خلاف ما يظهر به كتاب التاريخ من خشية واحجام عن ابداء

وجهات نظرهم ومواقفهم من الثورة المسلحة ، والثورة السياسية وما حف بهما من ملابسات ، فان الروائيين وجدوا في انفسهم بعض الجرأة ليكتبوا هذا التاريخ كتابة ادبية ، ولينصفوا الفئات المقهورة والهامشية التي قامت بواجبها الوطني ، وكانت لها غايات تتجاوز مجرد المصالح الشخصية ، وتهدف اساسا الى ابراز الهوية الوطنية والقومية ازاء ما كان يقصد اليه الاستعمار من طمس لهذه الهوية . فجلال القادري وصلاح وقدور ابنا عمه على تفاوت المستويات الثقافية والبيئية ، ورغم ما يفرق بينهم من الاختلاف في المستوى العائلي والفطري نجدهم جميعا امام القضية الوطنية على نفس المبدأ والغاية .

جلال الشاب الذكي المثقف الواعي لكل تحرك استعماري ،والذي ما يزال طالبا بالزيتونة ، وكذلك صلاح ابن عمه الذي يقل عنه ذكاء ووعيا ، وثالثهما ابن عمهما العامل البسيط الذي يعول اخته (فضيلة) ووالدته (صالحة) ثلاثتهم يؤلفون طليعة الفئات الاجتماعية التي توحدت جهودها لاخراج المستعمر واعلان الحرب عليه ، كل بوسيلته الخاصة ، جلال بعقله المدبر المنظم للمظاهرات والاجتماعات وبطبيعته المتميزة بالدهاء والخجل والبرودة .

« علت الهتافات فغطت الهمسات »

رشعر انه استمع الى ما فيه الكفاية . وادرك بمرارة انه لم يكن مخطئا حين ظن ان الهمسات ذات دلالة ملتاثة تثير الريب والشك : « تلك معادن الثورة : الذهب ، والحجارة . لكن هل نحن في حاجة الى الضفادع ، والحيات السامة ، والجراثيم الفتاكة ..لا بد من صهر المعادن ..

.. وخطرت له فكرة . وقلبها في ذهنه قليلا ، ثم نهض بهدوء واخترق صفوف الجالسين حتى اقترب من المحراب ، واشار الى احد المنصرين ، واقتحم الجناح الخلفي لبيت الصلاة . وتساءل في قلق « افهم الرجل ما تعنيه ؟ وهل انتبه الشيخ وجليسه الى اشارته ؟ »

واسرع يطمئن نفسه الى انه اجتهد كثيرا في اخفاء اشارته .. فلا خوف اذن من الامر ما دام قد فضل الاقدام على تنفيذ الفكرة .. وماذا يخشى ؟ هل الوقوع في يد المفتش ، ام الاستهانة بفكرته ونبذها ؟ سيراها مجرد هواجس لا سبيل الى اعتبارها .. واقع الحال يفرض دائما وجود الخونة .. والمظاهرة ستنطلق ، وليعطلها المفتشون مهما كثروا ، واندسوا بين الصفوف .. هذا فقد اوقفتك الاوهام والمخاوف في الشطط .. ثم ها هو واقترب الرفيق منه ، ففرس نظرته في عينيه :

ـ اريد ان افانحك بسر خطير ص (٩٥) .

وصلاح باندفاعاته الوطنية التلقائية ، وبوقوعه تحت تأثير جلال ابن عمه الذي استطاع ان يطلقه من قيد عائلتهم الموالية للادارة او البيروقراطية ، ويزج به جنديا في معركة الشعب .

وكذلك قدور العامل في حظائر البناء تحت امرة ضابط فرنسي نجده هو الاخر يطلق الخمرة واللهو واصدقاءه في العمل . وينطلق ليلا من فوق سطح بيتهم الكبير من نهج حمام الرميمي « بباب سويقة » متحديا حظر التجول المفروض ، للبحث عن جلال الذي تناهت الاخبار بانه اعتقل مع الطلبة المعتقلين الذين نظموا مظاهرات الاحتجاج على الوجود الاستعماري وعلى التعسف والقهر .

وعبثا حاولت « صالحة » اثناء ابنها قدور « عن مغامرته وسحب السلم من تحت قدميه ، ولكنه كان قد غاب وترك السلم وراءه .

« وباعد بين رجليه ، وهو واقف يستشرف برأسه المثقل معالم المدينة ، وعصر المساء بكآبته تلك النشوة التي اخذت تذوبني راسه .. كانت الشمس تحتضر وراء البنايات الشاهقة ، وتنشر اشعتها في اشلاء السحب الملوثة بشحوب الاصفرار الغائم . وزحف اليه من الغروب تثاؤب اسود ، اخذت تسبح فيه اجنحة طيور ظلت تتخبط لتقع على اعمدة الكهرباء وعلى فقرات ميازيب السطوح ، وعبر السكون النسبي المخيم على العاصمة كان يرتفع من حين لآخر صليل السيارات الحربية .. يرتفع ثم يتلاشى مع النواءات الشوارع المدفونة في احشاء المدينة ، واحس بالاعياء يكتسح اعصابه ، فاستلقى في انهيار على ارضية السطح المصدوع .

والتمس بانبطاحه وضعا مريحا ووسد رأسه فوق ذراعه ،واطبق اجفانه . وامحت الصور والاحاسيس والخلجات ، بينما تلقف انفه انفاسا مجهدة احالها الى شخير ممجوج .ص (١٣٦).

ومن ثم ينضم قدور الى الثورة المسلحة التي تتلاءم مع مواهبه في الاندفاع وتحمل المشاق والرغبة في البذل والافتناع بان العنف المسلح هو الاسلوب الكفء لمواجهة العنف الاستعماري .

ان ثلاثتهم (جلال ـ صلاح ـ قدور) يمثلون جيلا جديدا استيقظ ليجد نفسه في خضم المواجهة مع العدو .. في خضم حرب هم مدعوون لتحقيق الانتصار فيها ، مهما كانت الصعاب والاسباب ،لانها حرب الكيان والهوية . وبنظرة اوسع فثلاثتهم بالرغم من انتمائهم الى شجرة عائلية واحدة انما يمثلون الطبقات الاجتماعية المتباينة التي تختلف مشاربها واوضاعها وغاياتها غير انه ولا لقاء بينهما البتة الا في هذه الجبهة .. جبهة الدفاع عن الارض والكيان .

وعلى سطح هذه الرواية تبرز عشرات الشخصيات الهامشية والسلبية ، التي تمثل اصنافا من الانتهازيين ، والبيروقراطيين والعملاء من امثال حامد الفويدري ، عم جلال ووالد صلاح الذي يرى انمصالحه مرتبطة بالدفاع عن اللغة الفرنسية ، ويصوغ مقولات على نحو يوهم بان كل تفكير في الاستغناء عن اللغة الفرنسية انما هو انتحار وطني وعالمي ، لانها هي مفتاح صلة الوطن بالعالم الارحب . وهو يجادل ابنه صلاح من هذا المنطلق ، كي يردع جموحه الوطني ، ويوهن من عزائمه ، وينال من كبريائه القومي واعتزازه بلغته .

ـ انك تتحامل على لغتنا يا ابي .

ـ انا لا اتحامل عليها ، وانما اقول الواقع ، والا فل لي : هل تستطيع ان تثبت لي ان الطبقة التي تعلمت في جامع الزيتونة ستتطيع ان تسير الادارات التي هي الان بيد الفرنسيين ؟.

احتقن وجه صلاح واحس كأن والده يهينه شخصيا ، وقال في سخط :

ـ واذن فنحن لسنا في حاجة الى الاستقلال عن فرنسا ، ما دمنا عاجزين عن ادارة بلادنا واستخدام لغتنا ومؤهلاتنا الفنية ؟

قال حامد :

ـ هو الواقع .. ففيما يخص عجزنا اللغوي فاننا ـ كتونسيين ـ مجردون من اللغة نفسها ، فاللغة العربية التي تقول ليست لغة خاصة بنا اذ هي شائعة بين عدة اقطار فتحها العرب ، ولم يعد لاولئك العرب اي كيان سياسي ، او جغرافي اذ دخلوا حيز التراث التاريخي كالفراعنة تماما . وقد تركوا اللغة العربية كما ترك الفراعنة الاهرام . واذن فلا سبيل لتمسكنا بلغة نراها لا تخصنا اقليميا .

هتف صلاح : عجبا !

حول حامد راسه وقال :

ـ هذا هو الحق مع كامل الاسف وسيجابهنا باخطاره اذا تحقق هذا الاستقلال ، وسندرك ان لا جدوى من التعريب اداريا وتقنيا ،ولا بد من ان نتمسك باللغة الفرنسية . وهذا التمسك سيوقعنا في عجز كما قلت لك ، لاننا لا نستطيع ان نجاري الفرنسيين في اكتساب لغتهم (٦٠ خيوط الشمس)

وعلى شاكلة حامد نجد اسماعيل الجابر مدير ديوان وزير العدل الذي يكرس كل مواهبه الادارية الفذة لتاهيل ابنه من الناحية

السياسية لاحلال منصب هام في الدولة الجديدة في اطار السلك الدبلوماسي ، ليضمن له عيشا كريما رخيا موصيا اياه بأن يبذل القليل من الجهد ، وهو لذلك ارسل ابنه شريف الجابر للدراسة بفرنسا ، وشرع منذ حلوله بتونس يلقنه اصول السياسة ويطلعه على خفاياها دون ان يبيح له الاختلاط بالفئات التي تمارس السياسة لان مفهوم السياسة عند اسماعيل الجابر هو ان نحذقها كمهنة ، ولا نمارسها كعمل ثوري يقود الى السجون والموت .

اما رشيد الساحلي فهو الشرطي الحازم الذي يكرس كل مواهبه لخدمة الاستعمار ، ورصد حركة المناضلين ، والمشاركة في تعذيبهم في سجون (المحمدية) و (تبرسق) ، وابتزاز اموال الاهالي الذين يلجأون اليه للتوسط في معرفة اخبار ابنائهم ومصائرهم .

وفي خضم هذه الموسوعية الروائية نتعرف الى ابطال الثورة الحقيقيين الذين اعتلوا مشارف الجبال ، وقاموا بتنفيذ اخطرعمليات الفداء في الفجاج والطرقات ، من امثال البشير الفوري ، وحمادي رابح ومحسن الازهاري ، ومسعود الفالح ، والمنجي ، ومذيوب ، كما ان الثورة المسلحة نفسها لم تسلم هي الاخرى من المنحرفين امثال ميلود الرداوي الذي بدأ ثائرا وتحول الى قاطع طرق ، ركب الثورة ليصبح الحاكم بأمره في الجبال ، بروع من يشاء ويقتل من يشاء دونما وازع ولغايات خسيسة . وتنخلل الرواية اسماء الزعماء والقادة الذين قاموا بدور يذكر في الحركة الوطنية ، وقادوا الثورة المسلحة ، ولكن في حدود الادوار التي قاموا بها ، وادوها مخلصة للوطن .

وعلى عكس رواية (ارجوان) فان (نوافذ الزمن) التي كتبت لتصور احداث بنزرت ، ومعركة اجلاء الفرنسيين عنها في سنة١٩٦٢ فانه لا مجال في هذه الرواية للشخصية الهامشية لان طبيعة المعركة كانت قد اتخذت خطا متصاعدا ،وليس ثمة من كان يستطيع التشكيك في جدواها ، ما دامت الدولة نفسها هي التي اعلنت هذه الحرب ،وهي التي عبأت لها الجيش النظامي وافراد الشعب ، كما لا توجد في هذه الرواية شخصية محورية واحدة او مجموعة شخصيات محورية، ان البطولة فيها جماعية لا يتميز فيها الطبيب عن العامل ، ولا الاستاذ عن البحار ولا الموظف عن الضابط . وميزة هذه الرواية من الناحية السياسية انها الوحيدة التي ارخت بطريقتها الخاصة لهذه الحرب ، وصورت لنا الاحداث البارزة لمعركة هي من اهم المعارك الوطنية التي خاضها الشعب ، ودفع فيها الاف الضحايا وذلك من خلال الوثائق والاخبار والمعايشة اليومية ، كما انها تتميز بما اشرت اليه من تقنية روائية فذة اذ يروي هذه الحرب مجموعة من الشخصيات التي عاشت المعركة (عادل ، الطاهر ، التجاني ، بلقاسم عمار ، كمال ، نورالدين العلم علي ، الازهر ، ياسمين ، ليلى،عزيزة) ولكنهم لا يكررون نفس الاحداث ، ولا يكررون انفسهم ومن مجموعة اقوالهم تتالف احداث الرواية وصورة المعركة ثم في فصلها الثاني تعود بنا المؤلف الى المرحلة التي سبقت الاعداد لهذه المعركة . وكيف كانت حياة هؤلاء الابطال هادئة سعيدة قبل ان تعلن الحرب وقبل ان يدحر السلام .

وبالاضافة الى ما يمتاز به اسلوب المؤلف من مرح ،ودعابة، ودقة في التعبير وقدرة على الحبك والصياغة والخيال المقتصد ، والشاعرية في اللغة فان الكاتب لا يهمل العواطف ، والمشاعر وقصص الحب التي لا تخلو منها علاقة انسانية ، وقد سردها في اطار عفوي جنبه الوقوع في الافتعال ، والجنوح الى الميلودرامية المعيبة . انها قصص الخيبة والمرارة ، وقصص السعادة والوفاق التي انعكس عليها واقع الحياة السياسية فشلم العواطف ، وحكم على بعضها بالفصل ، واعطى بعضها الاخر القدرة على التجاوز والفوز بالرغبة .

لذا كان مآل حب جلال لفائزة الفشل المنتظر ، نظرا لما يفرق بينه وبين ابنة عمه من تفاوت اجتماعي ، ونظرا لاختلاف الطبائع بين فائزة الطائشة الملتهبة العواطف ، والتي كانت تبحث عن المجد والمال وعن سيارة شريف الجابر « السبور » التي اخطفتها من الشارع ذات يوم .. وبين جلال الكلف بالجمال والاحلام الطموح الى وطن متحرر من الاستعمار ، والباحث عن غد سعيد يجد فيه موطيء قدم بعد ان فقد الارض التي سلبه اياها عمه حامد القويدري عنوة وصلفا، والام التي اختطفها الموت ، والوالد الذي مات كمدا وحسرة .

لقد استطاع الكاتب ان يعالج المضامين السياسية التي طرحتها رواياته من خلال ابطال يؤمنون بالثقافة وبالفكر ويرون فيها اسلحة ضرورية وحاسمة في اية معركة يطلب فيها النصر ، باعتبار ان البطل المثقف هو الذي بامكانه ان يتخذ الجدل وسيلته للاقتناع والتحريض وبث الوعي.فيمن حوله ، مثلما فعل جلال الذي جند الكثيرين من اقربائه بفضل منطقه الواعي ، وايمانه العميق بجدوى المعركة النضالية التي يخوضها .

وشخصية جلال في هذا الصدد تماثل الى حد ما شخصية (عبدالله) المحورية التي تقوم عليها روايه (التوت المر) للعروسي المطوي ، فعبدالله بما له من ثقافة ووعي ، ادرك هو الاخر بأن قريتهم على وشك الخراب من جراء ادمان الكثيرين على تعاطي المخدرات . لذلك اتخذ المنطق وسيلة لتجنيد ابناء القرية وحملهم على تخريب المزارع، وتنظيم حملات ضد حشيشة الكروري التي كان يبيح تدخينها عمدا لشل قوى التفكير في المجتمع ، وتخدير عزائمه والهائه عن حالته الرديئة ، وحالة وطنه الذي هو بحاجة الى رجال اصحاء اشداء لينهضوا بالمقاومة .

اسس عبدالله جمعية انقاذ الشباب التي تألفت في باديء الامر من كل من ابراهيم والمختار ومحمود ، ثم اصبح ينضوي تحت لوائها اكثر من خمسة وعشرين شابا مجندين لتحرير آبائهم من اسى التكروري الذي نخر صدورهم واستعبد نفوسهم ، وشن هؤلاء حملة شعواء على الاجنة والغابات مدمرين هذه الاشجار مجتثين اصولها مما دفع بالقرية الى الحيرة وادخل فيها الرعب والفزع .

وعبثا حاولت السلطات الاستعمارية القاء القبض عليهم ولكن دون جدوى نظرا لاحكام التنظيم الذي يجمعهم ولايمانهم بجدوى ما يقدمون عليه ، الى درجة ان ابراهيم اشعل النار في دكان والده الذي كان يبيع التبغ ، وذلك عندما رأى اعوان السلطة الاستعمارية قد زاروه نهارا متسائلين عن هذا الذي يحدث بالقرية طالبين اليه مساعدتهم على الوصول الى معرفة الفاعلين .

« .. واندس (ابراهيم) في ظلام السقيفة ثم خرج الى الشارع في طريقه الى المقهى . وقبل ان يتوغل في طريقه فوجيء بسيارةقادمة الى القرية، لم تقف بساحة السوق ، ولم تعرج على منزل شيخ التراب بل اقتربت السيارة منه . ثم وقفت امام دكان والده .

ونزل منها جندرميان ، ودخلا الدكان ، فاستراب من قدومهما في هذا الوقت وتوجههما الى حانوت والده ، فعاد ادراجه الى المنزل . ووقف في ظلام السقيفة يفكر . ولم يلبث ان رأى والده يدخل الدار من الباب الواصل بين الحوش والحانوت يتبعه هذا الزائران ! ودخل ثلاثتهم « المخزن » واطبقوا وراءهم الباب ، فازداد ابراهيم شكا وريبة من هذه الزيارة ومن هذه الخلوة بين والده ورجال الجندرمة .

« لماذا اتى هؤلاء الكلاب ؟ هل لزيارتهم صلة بما حدث في القرية منذ اسبوع ؟ يجب ان اعرف ذلك ..» (ص.٨٠ ـ التوت المر) .

هذه الرواية وان لم تتناول الاحداث المسلحة ، ولم تتعرض للمقاومة المباشرة كما هو الحال في روايتي بن جنات فانها تقدم لنا صورة من الكفاح السري او الكفاح السلبي الذي لا يواجه الاستعمار وجها لوجه ولكنه يواجه الاسلوب الماكر للاستعمار ، ويواجه طرقه السلبية في هدم عناصر الشخصية في الشعب ، وتحطيم المعنويات الصلبة بقصد اخضاعها لسيطرته المطلقة .

يصح ان نعتبر (التوت المر) رواية المقاومة السلبية للطرق السلبية ، فبنفس الاسلوب الذي أراد الاستعمار استخدامه لتهديم القرية المعباة بروح الثورة والجلاد ، انطلق الجيل الجديد من ابنائها يرفعون الوصمة عن الاباء ، ويحررونهم من ربقة المخدر الذي اباح الاستعمار تناوله لتحقيق بعض اغراضه الخاصة . وذلك عندما اعجزه الجهد عن مواجهة العنف بالعنف واستعمال السلاح والقهر وسيلة لاخضاد شوكة متساكني هذه القرية التي كانت مدار الرواية .

وضمن كتابات العروسي المطوي المتعددة عن الحركة الوطنية ، في مرحلة الخمسينات التي كانت اوج المعركة ، وبداية العنف المسلح نراه يقدم لنا في روايته (حليمة) نموذجا للبطولات النسائية تلك المراة التي ابت الا ان تشد ازر زوجها عبدالحميد عندما اكتشفت بمحض الصدفة ذات يوم انتماءه للثورة ، وقيامه بالتنسيق بين فصائل المجاهدين ، وامدادهم بالسلاح والمفرقعات . وايمانا منها بهذا الدور الذي كان يقوم به الزوج ، نرى حليمة تنخرط في المقاومة ، وتتصدر المظاهرات الوطنية ، وتنال نصيبها من الشرف والاذى .. « وشاركت حليمة في المظاهرة الكبرى التي انتظمت بحي « باب الخضراء » وتصدت للمتظاهرين القوات الفرنسية بسلاحها الفتاك وقواها الجهنمية ، ورغم سقوط الشهداء والضحايا فقد استطاع المتظاهرون الصمود والثبات ، واعادوا التظاهر المرار العديدة .

اما حليمة فقد انهال عليها احد الجنود القساة ضربا بمؤخرة بندقيته فاصابها بعدة ضربات في جنبها حتى سقطت على الارض ، فركلها برجله ركلة فظيعة واغمي عليها .

وعندما عادت الى المنزل انتابها الم شديد واحست ببداية اجهاض .. « حليمة ص ٩٩) .

وعيب هذه الرواية هو انها رواية تقريرية ، تنقل لنا الاحداث باسلوب يفقد هذه المقاومة كل جدوى ، لانها مقاومة لا تنطلق من وعي ولا تنبثق عن اقتناع ، وكانما ثورة عبد الحميد انما هي لمجرد الثورة ، وثورة حليمة انما هي لمجرد الانتار لوالدها الذي قتل على يد احد معمري الارض عندما هم ذات مرة بقطف وردة رغبت فيها زوجته الحامل . وهكذا نرى الحدث في رواية (حليمة) حدثا ساذجا يختلف كل الاختلاف عن المضمون الهادف والمتميز لرواية (التوت المر) حتى ان هذه الرواية تنتهي نهاية غائمة متعجلة وغير مقنعة ، اذ يحكم على عبدالحميد بعشرين سنة اشغالا شاقة ، وفجاة يهل الامل لحلول يوم غرة جوان ١٩٥٥ م بعد عودة زعماء البلاد وانفتاح ابواب السجون .

ومن مظاهر النضال السياسي الاندفاعي غير الواعي ما نجده في رواية (عندما ينهال المطر) التي تلخص لنا سيرة تلميذ في المعهد العلوي (عباس) يعيش في كفالة خاله (سليمان) الذي كان يشغل خطة باش شاويش في الادارة الاستعمارية .

يتعلق (عباس) بجارتهم حسنة ، ويتبادل واياها العواطف والاهواء الجسد . ثم تخطب حسنة الى رجل يكبرها بسنوات عديدة ، وفي صباح اليوم الاول من ذهابها الى بيت الزوجية تعود حسنة الى منزلهم ، لان زوجها اكتشف انها كانت لها علاقة سابقة بغيره . وتظل حادثة حسنة تنخر ضمير عباس فينصرف الى الانخراط في صفوف الشعب الطالبية السرية المنتظمة بالمعهد ، يشارك في الاعداد للمظاهرات مع ثلة من رفاقه (عباس ، صالح ، خضر ، محمود) الى ان تسنى له اصلاح غلطته مع حسنة واقناع خاله بالتزوج منها . وفي ليلة عرسهما يذهب عباس للمشاركة في المظاهرة الكبرى المنتظرة .

« وفي تلك اللحظة وصلهما الصوت عاليا من الخارج ، باكيا منتحبا :

ـ خالتي حبيبة ، عمي عباس ، اسرعا .. تعاليا ..

وقفز الاثنان مسرعين الى وسط الدار ليجدا خالدا قرب عرضة باب السقيفة الداخلي ، وحوله جمع من النساء اللاتي كن ياكلن. كان خالد في حالة مرعبة عيناه زائغتان ، يملاهما الدمع ، وقسمات وجهه يعصرها الالم والحسرة ، الشيء الذي زاد في دمامته ، كان فمه في تكشيرة لا تنتهي تمطط معها جانبا انفه فصار افطس تماما :

ـ ماذا هناك يا خالد .. ماذا جرى ؟

ـ آه يا عمي سليمان ، عباس اخذه الجيش ، ضربوه برصاصة في ذراعه ، ثم اخذوه ، ركلوه ، ضربوه باعقاب البنادق ، الدم يصب من كل جانب من بدنه .. آه يا اخي عباس ..

وولولت النسوة باكيات ، طالبات اللطف من الله لهذا العريس الشاب صاحب العروس ذات الكعب المشئومة ..» ص ١١٥ .

وعندما يخرج عباس من السجن ، يكون خاله قد توفي ، ويكون ابنه الصغير قد ورث اسم الخال سليمان ، على غير علم بما حدث للعائلة من ولادة او موت .

ومن خلال الاحداث ترى مضمون الرواية ينحصر في تقديم شخصية (عباس) النزق المغامر المعجب بنفسه ، واعطاء صورة عن الحياة الاجتماعية في الاحياء الشعبية وما يسودها من الفوضى والتلاؤم ومن التناحر والوئام معا . ومن البديهي ان يتعرض المؤلف اثناء تصويره لفترة الخمسينات الى ما كان يعيشه الشعب من غليان دائم ، وتحفز للمقاومة .

وقد جسم ذلك من خلال شخصية عباس ، وما يجري في المعهد العلوي وبقية المعاهد الثانوية الاخرى من تمرد وثورة على المستعمر، ولكنها ثورة تخلو من الوعي ثورة اندفاعية في حدود ما يشعر به التلميذ من رفض للواقع دون ان يفكر بما وراء ذلك ، ودون ان يكون لهذه الثورة مضمونا سياسيا ، وموقفا محددا من الحاضر والمستقبل .

وفي هذا النسق تختلف شخصية عباس التلميذ الطائش الذي كان همه الركض في مختلف شوارع العاصمة ليشعر بانه مطارد من قبل الشرطة والجيش الفرنسي، عن شخصية (جلال) التلميذ ، ايضا والذي يلتقي مع الاسلوب الذي يمارسه عباس نفسه ، ولكنه يتميز عنه بوعيه السياسي العميق ، لابعاد ما كان يقوم به من مقاومة .

ولعل ذلك هو الذي يجعلنا نلمس ضعف الشخصية في «عباس» وانهياره النفساني بمجرد ان يدخل السجن وانحصار تفكيره في حسنه وما جرى على خاله من الوبال ، بينما نرى السجن يضيق بجلال في رواية (ارجوان) ، ويتحول في نظره الى قلعة من الصمود ويصهر شخصيته بتجربة جديدة ، ويشحنه بمزيد النخوة والاحساس بوجوب المضي قدما لادراك الغرض الذي نذر له شبابه وروحه : « .. لا لن امضي على اي سطر مما تكتبونه ..اقتلوني ، اأموت ؟ سأصرخ واتاوه، سيغمى علي . ولكني لن ابكي ابدا (ارجوان ص ١٧٤) .

ولو امكن استعراض جل ما كتب من روايات تونسية لحد الان لبدا لنا ان معظمها اهتم بتصوير الواقع السياسي لمرحلة الخمسينات على الخصوص . والسبب هو ان جل مؤلفي هذه الروايات كانوا قد عاشوا هذه المرحلة بعمق ، وكانوا شهود عيان ان لم يكونوا مشاركين حقيقيين في دعم تلك الاحداث . ومن لم يشارك منهم بنفسه فهو ولا شك قد شاهدها او سمع عنها الكثير .

اضافة الى ان الخمسينات تعتبر من اهم المراحل والفترات التاريخية التي عاشها النضال في تونس اذ كانت السنوات التي حسمت بين عهدين ، عهد الاستعمار وعهد التحرر . وكانت سنوات الحرب المسلحة وسنوات النضال السياسي المرير .

ولا غرو حينئذ ان تتعدد الكتابات عن المضمون السياسي لهذه المرحلة ، وان يقع ابرازه والتاكيد عليه ، وتصويره تصويرا يفي بالنخوة ، ويرضي كبرياء الوطن .

بل ان الرواية التونسية اهتمت في المرحلة اللاحقة بقضايا تعتبر من اساسيات مرحلة بناء الكيان ، وتحقيق الهويه ، وهي قضايا التكافؤ الاجتماعي وصهر الطبقات ، واحياء الارض ، والاهتمام بالفئات الضعيفة التي عاشت مظلمة تاريخية مريرة طيلة الوجود الاستعماري والعهود الاقطاعية المستبدة .

واذا كانت الدعوة الى هذه الآراء والاصداع بها قد اتسم بالاحتشام والتواضع وتصوير الصراع على انه صراع عرضي وليس صراعا حتميا ، ومطالبة بالحق والعدل وليس اخذا لهما بالشدة اللازمة ، فان الرواية مع ذلك لم تخل من نزعة جادة لمساندة رغبات وتطلعات الطبقات الاجتماعية المغبونة كعمال المناجم ، والفلاحين ، وابناء الريف، والمكرات المعدمين .

ورغم ان القصة القصيرة بدت في السنوات المتأخرة اكثر افصاحا عن هذا المضمون السياسي ، واكثر وعيا لهذه المشكلات التي نجمت في مرحلة ما بعد الاستقلال الوطني ، فان الرواية لامست الى حد ما منذ بدايتها شكل هذه القضايا وقفزت بها الى السطح باعتبارها احدى المعضلات الزمنة التي ادت الى كل الثورات الوطنية منذ الاحتلال ، وقبل الاحتلال .

ويتجلى ذلك في الاسباب التي دفعت (حليمة) بطلة رواية العروسي المطوي ، الى الانخراط في الثورة لان والدها منع من قطف وردة من ضيعة المعمر الفرنسي المقتطعة من تراب الوطن ، وتراب القرية التي يعيشون عليها ، وحين تجرأ ووضع كفه على الوردة ليقتطفها خلسة جوبه بالرصاص ، والموت وتهمة السرقة ، انه العدوان المرير ، وظلم المستعمر الذي لم تكن تهمه الهيمنة السياسية ، بقدر ما كان يهدف من وراء هذه الهيمنة الى الاستحواذ على الارض واستغلال طاقتها على العطاء ، والاثراء عليها .

وعلى هذا النحو تبدو صورة (الدبنجق) البطل العمالي الذي صور بشير خريف في روايته (الدقلة في عراجينها) نضاله المستميت في سبيل الدفاع عن حقوق عمال مناجم المنلوي بالجنوب التونسي . ومحاربة الشركة الاستعمارية التي كانت تستمد سطوتها من الثروة الوطنية التي كانت تبتزها ، ومن سواعد العمال الوطنيين الذين كانوا يعاملون معاملة قاسية ، ويسامون العذاب الوانا .

وعندما شعر هؤلاء العمال بوجوب الوقوف صفا واحدا ، والتساند للمطالبة بحقوقهم المشروعة وجدوا الرصاص بانتظارهم ، وبنادق جنود الاحتلال في حماية الشركات الاستعمارية .

ويتكرر نفس المشهد في رواية (يوم من ايام زمرا) لمحمد صالح الجابري التي تعالج هي الاخرى مآسي الصراع الدامي بين شركة مناجم الفوسفات والجنوب التونسي وبين العمال الذين كانوا عرضة للاضطهاد والقهر والاستغلال وتروي قصة الشاب ابراهيم الذي اعيته الحيلة في البحث عن عمل بمختلف انحاء البلاد فيلتحق في النهاية بعمه الذي يعمل بمنجم بلدة (الرديف) علّه يحصل على عمل مماثل الى جانبه وفي اثناء فترة الانتظار يشاهد احد الاضرابات التي يقوم بها العمال ، ويجد نفسه في خضم الحشود يصغي للخطباء والزعماء فيتلجلج الصوت المكبوت في داخله ، ويندفع نحو منصة الخطابة ، ويمسك المصدح بدوره ليقول كلمة كان يبحث لها عن مثل هذه المناسبة الفريدة .

« امسك بالبوق وتكلم .. تكلم كلمة واحدة لا غير .. فاه بها قبل ان تعاجله ضربة قوية من الخلف تركته يتدحرج اتى الارض صامتا ، فال بكل شجاعة ورباطة جاش « اضربوا » .

وكان يريد ان يكمل الجملة الاولى من الخطاب « ولن تموتوا جوعا » وهي جملة حفظها عن ظهر قلب ، ورعاها من كتاب قرأه ذات مرة اثناء اقامته ببلدة « القصرين » .ورأى ان الموقف مناسب لذلك.واذا بهم يعاجلونه بكل سرعة ، دون ان يعلم ما اذا كان الناس قد سمعوه ام لا وما اذا كانت فكرته قد بلغت الآذان ام لا ...؟

وافاق من الاغفاءة العميقة التي اخذته على اثر الضربة على صوت عين ماء باردة تشرشر في اذنيه ، وشعر بيقظة تسري في اعصابه وجسمه ، وتعيده الى نفسه . وعندما رفع رأسه ليعرف اين هو ،قابله صف من اشجار الطرفاء ، وعينا شرطي تراقبانه من الخلف ، وتنتظر ان يفيق ، فعرف انهم قبضوا عليه ، وانه الآن وراء الاسلاك الشائكة .

عند ذلك اغمض عينيه مرة اخرى . ودس رأسه تحت الماء يكمد الجراح والكدمات ويشعر ان الارض تدور .. وتدور .. وتدور .. « يوم من ايام زمرا » (ص ١٧٢) .

ونتيجة للشعور بهذا الظلم الفادح الذي لقيه العامل الكادح في المناجم ، والفلاح الذي سلبت ارضه ، نرى الروائيين يظهرون اهتماما خاصا بمشكلة تحرير الارض ، واعادتها الى اصحابها والمساهمة في احيائها ، ففي رواية (المنعرج) لمصطفى الفارسي جماعة من المثقفين (عادل الهادي ، عبدالعزيز ، عبدالسلام ، سلوى) يلح عليهم التفكير في القيام بمشروع يكفل مساهمتهم في احياء ما أهمل احياؤه من التربة والارض ، ويضمن اشتراكهم في اداء (الرسالة) التي يتوجب على كل مثقف اداءها ، ويتمثل هذا المشروع الذي كان بطله (عادل) الشخصية المحورية للرواية في (انتاج الماء العذب من الماء المالح) ، وفي انقاذ اراضي الجنوب المتعطشة للماء ، لذا نراه يجند كل مواهبه لوضع الدراسات اللازمة ، والشروع في التنقيب عن الماء، ويخترق بسيارته المناطق الصحراوية الجافة شان « المصلحين الكادحين » .

واصبحت فرق التنقيب عن الماء التي تعمل تحت اشرافه ،مرابطة بقرية « دويرات » على رأس جبل معجوف تكسو سفوحه الصخور ، ويتصاعد العفر كدخان البخور كلما مرت سيارة طائشة باوعاره ومنعرجاته .

ومن « دويرات » انتقل عادل الى « شننى » «فمرايسن» ثم الى « سيدي مصباح » وقضى ليلته بمدنين ، وقد انهكه السفر والتعب فنام نوما هادئا عميقا ، كنوم الاطفال ، كنوم عمال المناجم .. كنوم جميع الكادحين .. » (المنعرج ص ١٢٨) .

لقد اعجب (عادل) اثناء تطوافه بالواحات الجنوبية بقدرة القوم على الصبر والانتظار واخضاعهم كل شيء للزمن : « ففي هذه المناطق كل شيء يستمد قوته من ذاته نفسها ، ومن طبيعة المناخ والبشر . الماء هنا كمية من الزمن » .(ص١٢٣) .

وهو لهذا السبب يرى ان حياة المجتمع ، واستمراره في مقاومة الزمن والغلب عليه وقهره ، تكمن في قدرة ابنائه على اقناع انفسهم بهجرة المدن الى الارياف القاحلة ، والعمل على احياء ما لم يحيه المستعمر منها .

ورغم ان الرواية تقدم لنا صورة للنموذج المثقف في بلد يواجه مرحلة ما بعد الاستقلال ، وما تعج به من متطلبات ملحة ، فاننا نرى(عادل) شخصية رومنطقية تغلب عليها الشاعرية واحلام اليقظة والاعجاب بالمشاريع الكبرى التي قد تستعصي في بعض حالاتها عن الحل، فهو مشتت المشاعر بين حب سلوى .. وحب الارض .. بين الاستقرار ومواجهة الصحراء في الجنوب ، وبين الترحال الدائب والشوق، الى الطبيعة ، وغناء البادية في الشمال .. بين العيش في الماء .. والحلم بالماء .

« وتبرز من فمه كلمة « ماء » بعد لأي شديد ..وبمضي وقت ثم يشعر بقطرات من الماء ، تبلل شفتيه ، ثم تصل الى حلقه الملتهب في لهجة ، ولكن الالم يعاوده من جديد، فيئن ويخيل اليه ان اناته الملاحقة تخفف من حدة الم وانه يحلم وعيناه مفتوحتان . كل حواسه

الان تشعر وتعمل .. وترتسم امام عيني « عادل » مشاهد متلاحقة تجري كالسحب في السماء » (ص ١٦٨) .

وفي هذا الصدد تبدو رواية (.. ونصيبي من الافق) لعبدالقادر ابن الشيخ اكثر واقعية وتصويرا لمشاكل الارض والاحياء والفلاحة ، فهي ترسم لنا صورة قرية زغوان عند مصب المياه .. وقد غاضت عين القرية الوحيدة ، وتعرضت الارض لخطر العطش وبيعت الضياع باثمان متهاودة ، بعد ان تكالب على امتلاكها كبار الفلاحين . ولم يبق للقرية الا ان تدفع بشبابها الى الهجرة نحو المدينة .

وهكذا نرى (سالم) بطل الرواية يفارق القرية التي لم يفارقها في حياته ، ويفارق والده وامه وخطيبته خدوجة التي طالما حلم بالعيش معها في ضيعة ودار .. ميمما نحو العاصمة للبحث عن العمل في فندق سياحي .

نضب الماء .. وانبث الهلع في القرية ، فغدا الراعي بائع عاديات للسواح ، ورحل الشباب لخدمة السواح .. انها الكارثة والموت المحتم: « سيبارح سالم القرية .العمل قدامه، وخلفه اجره قارة وحبزة مدينة شهية وزواج سيتحقق ، ولكن الارض بين رجليه تحت رجليه وان لم تكن ملك يديه . يحبها احبها ، يرسم عليها حلما يتكرر في اليوم الواحد ، في وحدة الانس ، على الطاولة في المقهى في احلام الليل والقيلولة .

الضيعة الان مربعة ، رسمت يده عليها منزلا بجواره بئر، بجانب البئر جابية . ثم سطرت ساقية رئيسية تستمد منها الفروع ماء زلالا يسيل دون انقطاع في طريقه الى الاحواض ،وقد كثرت وتعددت خضرها.

كانت الاصابع تمشي فوق التراب هادئة كريمة لا تعرف للاحسان حدا . وفجاة اقتربت رجله من التصميم الدبسم فداست جزءا منه ، وامتدت الى العين ، الى ساحة المعبد يزغرد فوقها صمت المساء » (ونصيبي من الافق ص ٩١) .

وفي المدينة التي هاجر اليها سالم لم يجد هناك غير الوعود ، وغير الكلام الرقيق .. وغير جمع من الحراس يقفون على ابوابها يجلدون اسماع الناس بالاسئلة عن الاسباب التي دعتهم الى المجيء وعما اذا كانوا يحملون دعوة من ابرار المدينة تخول لهم زيارتها . ويتصل بعد الاذن له بالدخول بعثمان ابن قريتهم الذي ارسله ووعده بالتوسط له في العمل في احد الفنادق السياحية ،ولكنه يفشل في الحصول عليه لانه لا يملك ثمن البدلة التي يجب ان يظهر بها امام مدير الفندق . ثم يطرق باب احتمعارفه من ابناء القرية ايضا املا في الاقتراض منه ، لكن الاخر « اقسم له واخرج محفظة نقوده وكرر القسم تلو القسم فعظمت مساحة الفراغ ، وجمع ما لديه من القطع النحاسية ، والقى بها على الطاولة فلم ترن اذنيه . كانت عيناه تعبران فضاء جهنمي المرارة ورجلاه تطآن تربة يابسة تصرخ ضمها » (ص ١٥٨) .

وعلى مقعد خشبي بحديقة عمومية استلقى سالم منطويا داخل قشابيته بعد ان يئس من كل شيء ، واذا به وجها لوجه امام فتاة من قريتهم (محبوبة) اتخذت لها وضعا منحرفا تمارس الرذيلة على قارعة الطريق : « لم يكن ينتظر ابدا ، لم يتسن له الفرار .. لم تكن تنتظر ابدا لم يتسن لها الفرار .. لكانهما في قفص اللقاء، والليل حولهما جميل مخيف » .

واكثر من ذلك نرى محبوبة تمطره بنفس الاسئلة التي امطره بها الاخرون عن احوال القرية والمطر » .

ومثلما اكد المؤلف في خاتمة روايته بانه « يحلم الواقع » فانه في الحقيقة كذلك .. تارجح بين الحلم والواقع .. كل ما في الرواية يشبه الكابوس ولكنه كابوس من الحلم في الواقع المرير الذي واجه ابناء القرى على اثر من اصاب المدن بعد الاستقلال من الازدهار. فهي التي جنت ثمرة الكفاح الوطني ، واستاثرت بالواقع السياسي على حساب الارياف وابناء الارياف .وتتبطن الرواية نقدا هامسا لاهمال القرى والفلاحة ، والاهتمام بالسياحة كعمل اقتصادي يرجى منه النفع الشامل .

بعد بطالته القاسية يتحول الى مجرم يحترف الشر مع مجموعة اصحابه ممن تعرف عليهم اثناء تردده على بلدة (القلعة) بالساحل، حيث صهره محمد الاخضر ، معلمه بالمرحلة الابتدائية ، ثم اتفق واياهم على السرقة وترويج التجار ، وبعد توزيع الادوار كان نصيب سمير تاجرا من تجار ماطر ، فذهب اليه وادعى انه عين مديرا لمدرستها الابتدائية فاواه الرجل واكرم ضيافته . واثناء هذه الاقامة القصيرة تعرف (سمير) على ابنته جميلة وافتض بكارتها ، وتوصل الى خلع غرفته الخاصة والاستيلاء على ما فيها من اموال ، والعودة الى تونس العاصمة حيث وجد المجموعة التي ينتمي اليها وقد اصبحت مطاردة من قبل الشرطة .

وبما ان القصد الاساسي للمؤلف كان يتمثل بالدرجة الاولى في الكشف عن سلبيات هذه المرحلة وتقييم الوضع السياسي لفترة من اهم الفترات في حياة المجتمع التونسي ، فقد تعمد ان يعالج هذه التجربة من خلال شخصيات منحرفة ، شاذة ، مبتورة التكوين الثقافي والسياسي ،وفي اطار رواية ضعيفة البناء تغلب عليها السذاجة والسردية ، مما جعلها تبدو اقرب الى المذكرات منها الى البناء الروائي .

وكانما تعمد الكاتب بذلك ان يثار لنفسه من النعاضد ، ويشفي غليلا خاصا بالانتقام والاساءة الى بعض النماذج الاجتماعية التي عناها بروايته . ان الواقع يفرض ان نشير ايضا الى عدة محاولات روائية اخرى (كبودودة مات) لرشاد الحمزاوي ،(في بيت العنكبوت) لمحمد الهادي بن صالح ، (الزيتون لا يموت) لعبدالقادر بالحاج نصر و (البحر ينشر الواحه) للجابري عالجت بعض المضامين السياسية عن نضال الفئات وطموح المجتمع الى تحقيق مثل وغايات ، ولكنها عالجتها احيانا بصورة عرضية ، باستثناء رواية (بودودة مات) التي صورت كمثيلاتها مرحلة الخمسينات ولهذه السبب لم اشا ان اتناول الزوايا المحدودة لهذه الروايات التي كتبت اساسا لتصوير العواطف الانسانية والطموح البشري بصورة عامة ، وطموح الفرد التونسي بصفة مخصوصة.

واجمالا يتضح من هذا العرض المقتضب الذي حاولت ان اقدم من خلاله ما اعتبرته مضمونا سياسيا ومعالجة للواقع الاجتماعي ان مشاكل المجتمع التونسي قد لا تختلف اختلافا بينا عن مشاكل المجتمع العربي عامة والمجتمع الانساني بصفة اشمل ، باستثناء تلك المميزات المحلية التي ترتبط بالمواصفات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لكل مجتمع وتفرده بتلك السمات الخاصة جدا والتي هي في الحقيقة جوهر طرافته وابداعه .

تونس